الفصل الأول

العيب

١- الانفصام الخلقي .

٢- السقوط .

٣- إعادة التشكيل .

٤- الصراع .

انطلاقا من تجريم السلوك الخطأ . ليس لأنه خرقا لقانون وضعه المجتمع ليعاقب كل من تسول له نفسه تجاوز ما حدده . ولكن لأن هذا السلوك خطأ في حد ذاته . ينبغي على الإنسان تجنبه بغض النظر عن الإضرار التي قد تلحق به أو العقوبات التي قد تنزل به . وضع القاص هذا العنوان لروايته .

فقد يستطيع الإنسان أن يغافل المجتمع . وأن يرتكب ما يشاء . وقد يستطيع - وقد أوتي قدر من الذكاء - أن ينسل من بين فقرات القانون ولا يقع تحت طائلة العقاب . وهنا يكون المبرر موجودا لارتكاب ما يخالف القانون .

ولكن أليس هناك رادع يردع الإنسان غير القانون ؟

ألا يمتنع الإنسان عن الجرم إلا إذا كان هناك عقاب رادع له ؟

الأمر مع الإنسان ليس ارتباطا شرطيا كحيوان (بافلوف) . لا يفعل الشر لأن هناك عقاب . أو يفعل الخير لأن هناك ثواب . ليس الإنسان - أرقى المخلوقات - مثل الحيوان الأعجم . ذلك لأن في داخله محكمة كاملة ...تجرم وتدين وتحكم وتنفذ . تلك المحكمة هي الضمير الحي للإنسان والذي يستلهمه الفرد في معرفة الغيب ... وما ليس بغيب .

١ -الانفصام الخلقي :

يصطدم (سناء) بالواقع الفاسد محاطا بها . يريد بتياره الجارف أن يبتلعها لتكون من ضمن الغرقى . وتقف على شط هذا الواقع حائرة . متكرة :

فأما أن حياتها بكل ما حوت لا تساوى شيئا إزاء هذا الواقع الجديد عليها في المصلحة التي تعمل بها ؟

أو أن حياتها هي الحياة الحقة . وواقع المصلحة واقع شاذ منحرف لبس بينه وبين العالم الذي نشأت فيه من قبل أي صلة ؟

وليس المشكل هنا . فنحن لا نعجب إن صادفنا فسادًا . فالأشياء تذكر بنقائضها . ووجود الفساد في مكان ما لا يعد شيئا مستغربا . طالما هناك معادل موضوعي لإنكار هذا الفساد لدى الإنسان . وهذا نوع من الرفض السلبي للواقع المتخم بالفساد (فإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان) . وإنما المشكل أن يوجد الفساد والانحراف ويوجد ما يبرره ويعطي له نوعا من المعقولية التي تضفي عليه غلالة رقيقة من الشرعية . حينئذ يلتبس الحق بالباطل . ويدلهم الإنسان بين شعاب الخطأ والصواب .

وأن يتطرق الفساد إلى فروع الشجرة . هذا ليس بشيء . فقد تصح تلك الأفرع بعد حين . أو تبتر ويخرج غيرها صالحا من غير سوء . أما أن يزحف الفساد إلى العمق . إلى الجذر . فهذا هو الفساد الأكبر . الذي لبس صلاحا بعده . ويوم يقتنع الإنسان أو يقنع غيره بسلوك منحرف لهو اكبر دليل على فساد الإنسان وعلى ما يحيط به من واقع فاسد كان له نصيب أوفر في إجباره على سلوك ذلك المسلك .

فحينما رفضت (سناء) الاشتراك مع جماعة المكتب التي تبيع التصاريح حاول الباشكاتب أن يبصر (سناء) وقبل أن يبدأ بعينيا . صفحة (٦٩)

" سألنا صفوت أفندي الباشكاتب أول ما سألنا عن رأينا فيه . أوسيء؟ أفي ملامحه أو تصرفاته ما يوحي بالجريمة والإجرام ؟

أجابت (سناء) بالنفي . فالباشكاتب قد بدا لها طوال عملها معه وخوفه من الله والحساب والميزان لا يقل عن خوف عالم متبحر في الدين . ما الذي يدفع رجلا هذا شأنه إذن إلى أن يكون شريكا في عمل قذر تأباه النفوس ؟ "

سؤال قديم قدم الخطيئة . ما الذي يدفع الإنسان إلى الخطأ ...أهو طبع الإنسان ؟

أم الواقع المسلط على رقبته ؟

وإذا كان الواقع فأين إرادة الإنسان ؟

يقول (صفوت أفندي) مبررًا ما يفعله هو والآخرون : " الدنيا يا سناء يا بنتي . العيشة ... أنا ماهيتي كلها بعد الخصومات ١٩ جنيه و٢٣٠ مليما ومصاريف بيتي ما تقلش عن ٥٠ أو ستين ن عندي ولدين في الجامعة . وبنتين وولد في الثانوية . وبنت في المعهد وعيلين في إبتدائي . ولي اخت مطلقة وقاعدة معنا هي وأولادها ثلاثة ن منهم واحد طلعناه من المدارس وبيشتغل عامل في مصنع ... ساكن في بيت الناس بيحسدونا عليه . ومع كده إيجاره ثمانية جنيه ويبقى بند الأدوية ن بس بيأخد منا باليت جنيه في الشهر غير الدكاترة . لو في مكاني تعملي إيه ؟).

إذن هي قسوة الواقع على الإنسان . يدفعه إلى ارتكاب ما يرتكبه . ويعزي الإنسان نفسه بأنه يفعل هذا ليس لحاجة في نفسه . وإنما لأجل غيره . فهو مضطر ويأتي رد (سناء) على هذا التبرير بقولها : " اعمل أي حاجة إلا كده . أعلم ولادي بفلوس حرام ؟ أطلعهم من المدارس أحسن وأشغلهم .

قهقه الباش كاتب بسخرية مريرة ربما لسذاجة الاقتراح :

- لو رضيت أنا أمهم ح ترضى . ولو رضيت أنا وأمهم ح يرضوا هم ؟ ولو اشتغلوا حتى ح يشتغلوا إيه ؟ ح يكسبوا إيه ؟ "

فالشخصية هنا محاطة بأكثر من جهة تدفعه وتحضه . وهو لا يملك إلاَّ أن يسير في ذلك الطريق ، وكل ما يفعله نوعا من التبريرية الزائفة .

أيمكن أن يزحف الفساد إلى جوهره ، إلى قلبه ، فيقتنع به اقتناعًا كاملاً ؟

هنا يحدث الانفصام الخلقي . أن ينفصم الواحد إلى اثنين . فرد يرتكب ما يرتكبه ، والآخر يعارضه معارضة كاملة . وبهذا يحدث التراضي والتعادل السلمي بين الإنسان وبين واقعه . وإذا ما سألت كيف يكون هذا الإنسان فردًا واحدًا ، فأما أن يكون الإنسان مفسدًا أو مصلحًا ، كان جوابه المثل البلدي الذائع : (دي نقرة ودي نقرة) .

وقد يكون هذا الانفصام انتصارا من الإنسان النقي على واقعه القدر أو تحدي نظري للفساد أن يتطرق إلى جوهره فيدنسه ، فالإيمان والأخلاق والقيم موجودة ولكن ليس لها أي أثر عملي . فهي كالكتب المرصوصة على أرفف المكتبة مجرد أسماء طالما لم تمتد إليها اليد . فالواقع بقتامته يمنع تلك القيم أن يكون لها أثر في محيط الإنسان . وهو لا يعترف إلاَّ اعترافا نظريا فقط . وذلك نوع من التوافق الإنساني مع واقعه ، ولكنه توافق قائم على التعارض الصارخ ، نتج عنه نفسح في كل شيء ، فالواقع فاسد ، والأخلاق والقيم موجودة ، ولكن لم نقم بدورها في إصلاح الواقع ، وهذا من شأنه أن يضفي غشاوة من عدم الاهتمام واللامبالاة بالقيم

ويستبدل بالقيمة أشياء أخرى من أهمها المال . فلا قيمة للعلم . ولا للأدب ولا للأمانة ولا للإخلاص . القيمة الوحيدة هي المال .

فالتاجر لا يرى غضاضة أن يخرج من المسجد بعد أن أدى فريضة الصلاة لربه . لا يجد غضاضة أن يغش فيما يبيعه . فالصلاة شيء والتجارة والربح الوفير شيء آخر . فإيمان هذا التاجر لم يتعد القول أو الفعل الأجوف إلى الفعل الإيجابي وهذا ما اكتشفنه نساء المصلحة و (سناء) حينما ذهبن يوم الأحد للاحتفال بعيد ميلاد زميلتهن (يسرية) وأخذن يتحدثن عن هذا الانفصام الخلقي . صفحة (١٩) :

" – عندنا محمد أفندي راجل زي أولية الله شام حاجج مرتين وطول النهار السبحة في أيده ن وطول النهار يكلمنا عن اللي يصح واللي ما يصحش . والمصيبة أنه مش بيدعي . ده جد تلقيه كريم وعنده نخوة وشرف ونبل . أل أعرف لك بعد كل ده أنه بياخد على كل استمارة جنيه ،معتبرها عيب وكل حاجة . إنما يقول لك على رأيه : (هادي نقرة يا ولد عمي وهادي نقرة) .

- ونروح بعيد ليه ؟ رئيس الإدارة بتاعتكم يا سناء بيلعب بوكر بدينه . وقال إيه قبل ما يلمس الورق لازم يقرأ الفاتحة .

وتدخلت نور صاحبة الحفلة

- طيب أنا بعيني بقى شفت الحكاية دي . الراجل اللي ساكن تحتنا ده موظف في شركة ن لو كنتم هنا إمبارح كنتو سمعتوا الصراخ جايب من آخر الشارع وكل يوم والتاني مولد بالشكل ده وعلشان إيه ده كله ؟ حضرته بينزل

ضرب في ابنه لما بيجي متأخر من برة . ومتأخر دي عنده يعني بعد الساعة عشرة كويس كده ؟ إيه رأيكم لينا واحد قربنا بيشتغل معاد لما سمع الحكاية دي مات م الضحك وقال مش معقول ده . أي حد تاني معقول . إنما الراجل ده بالذات ده معروف عنه زي الشمس بيورد الستات لكل الموظفين الكبار في الشركة .

- ومستغربة ليه ؟ هادي نقرة يا ولد عمي وهادي نقرة .
- وارتفعت ضحكاتهن عالية . وما لبثت سناء أن قالت مواصلة نغمة السخرية :
- الظاهر الرجالة دول عندهم لكل مبدأ دوسيه ...الشرف في بيته غير الشرف في عمله . والحرام في الليل غير الحرام في النهار . والفضيلة ما تمنعش الرذيلة كله موجود في حالة تعايش سلمي .

ثم اعتدلت حادة لتكمل أرائها (الفلسفية) بقصة حقيقية عن رئيسها عم صفوت أفندي الرجل الدي هدهد عليها كالأب وحاول أن يقنعها باقتسام الرشوة والدي لا تخلو جملة من جمله من حديث شريف أو آية قرآنية . من يومين كان صفوت أفندي يحكي لي كيف اكتشف مرة مع ابنه الصغير إصبع طباشير ملون سأله عن مصدره فتلجلج ن وحقق معه فعرف أنه أخده من صندوق الطباشير في حجرة الرسم دون علم المدرس ...وكيف ظل ساعة يشرح له خطأه ويوضح له الجريمة التي ارتكبها . وكيف أمره في النهاية أن يذهب في الغد إلى المدرس يعترف له بما حدث ويرد له الأصبع وكيف لم يفعل الولد . وكيف ضربه وأخذه من يده في الصباح وذهب معه إلى المدرسة وجعله يعترف للمدرس أمامه بما فعله وطلب

الصفح والمغفرة . قصة من فم عم صفوت أفندي . حكاها عرضا ودون أن يكون له من وراء حكايتها هدف ن وعم صفوت أفندي هذا لا يجد عيبا أبدًا في الحصول بطريقة غير شريفة بالمرة على نقود تشتري آلاف أصابع الطباشير ؟ وأنهت سناء قصتها قائلة : أنها لا تزال إلى الآن حائرة مع صفوت أفندي لا تعرف كيف تحكم عليه والمنطق والعقل حين تنهي عن الشيء بحرارة وصدق حقيقيين في نطاق وبحرارة وصدق ترتكبه في نطاق آخر ؟ كيف تحكم عليه ؟) .

إن الشخصية إذ تفصل بين ما تؤمن به وما تمارسه بالفعل . تفعل ذلك لا لشيء إلاّ لكي تتجنب عقابها لذاتها . فهي أمام حالين :

الأول : أن يخفف من حدة وكثافة الجرم ويفرغه من محتواه بالأسلوب التبريري .

الثاني . أو يتجاهل تجاهلاً تامًا هذا التعارض الحاد بين ما يؤمن به وبين ما يمارسه . وهذا بمثابة الدفاع الذاتي . ليتجنب الشخص الوقوع تحت تأنيب الضمير الذي لا يستطيع الهروب منه ليلاً أم نهارًا .

وتخفيف الجرم والتجاهل يبقى عقاب الذات للذات معلقا . أو يبقى في منطقة الظل لا يتحرك . وإذا ما عثرت الشخصية على شخصية أخرى تماثلها في الانحراف . وجب حينئذ عقاب الذات للذات . فالأب الذي يعمل قوادًا في الشركة يعاقب ابنه عقابًا شديدًا لمجرد تأخره في العودة إلى البيت إلى العاشرة والباشكاتب صفوت أفندي يقف أمام ابنه الذي سرق أصبع الطباشير موقف القاضي الحازم الصارم الذي لا تأخذه رأفة في حدود الله . ويمعن في هذا ويأخذه ويذهب به ليعترف أمام المدرس أنه سرق أصبع الطباشير .

فالأب هنا – في الحالتين – ينتقم من نفسه في صورة ابنه لقد رأى نفسه المنحرفة في ابنه . فليعاقب ذاته من خلال عقابه له . وليشدد في العقاب . فهو بعد ذلك بسبيله إلى الراحة . ألم يعاقب ذاته على ما فرطت فيه ؟ فقد يحلل الإنسان لنفسه شيئا حرمه على الآخرين ولا تعارض بين الموقفين . فقد ارتكب خطأ بأن حلل لنفسه شيئا . وعاقب نفسه في هذا بأن حرمه على الآخرين . ولا انفصال – في رأيه – بين ذاته وذوات الآخرين .

وشخصية الباش كاتب تجسيد حي لهذا الانفصام . وظهر ذلك من خلال محاورة (سناء) له . حينما ردت على منطقه بقولها (ص ٧٠) : " – بس دي جريمة ...سرقة ...وأنت رجل طيب . دا كأنك بتمد إيدك في جيب واحد لا مؤاخذة يعني ..وبتنشل منه فلوس ن إزاي ترضى تعمل كده ؟

- يا بنتي الأخلاق الكويسة حاجة . وأكل العيش حاجة تانية .
- أكل العيش حتى بالسرقة ؟
- يا بنتي إنتي لسة صغيرة ع البر ما شلتيش هم المسئولية لما تكوني مسئولة عن حبش زي اللي أنا مسئول عنه وكل يوم لازم تسدي ٢٠ بق مفتوحين لك . مش ح نسميها سرقة أبدا . أنا بسرق مين ؟)

وكأن (سناء) اقتنعت في النهاية بهذا المبدأ التبريري . فبعد ما سألها الباشكاتب هل ستنفذ ما قالته للجندي . (– أنا قلت له كده عشان هو ...هو مش محتاج زيك وأخلاقه وحشة)

وحينما تجتمع مجموعة من الناس ، وتقر عمل من الأعمال ، هذا الإقرار يعطي نوعا من الشرعية لهذا العمل الذي تزاوله تلك الجماعة ، بغض النظر عن هذا العمل أهو خطأ أم صواب ، فالذي يعطي تلك المعايير هي الجماعة المزاولة للعمل فرب عمل ما يكون في مجتمع خطأ وعيب ، ونفس العمل في مجتمع آخر ليس بعيب ولا خطأ ، والذي أوجد هذا الاختلاف هو موقف كلا المجتمعين من العمل .

فالأول اعترف به ، وأقره فأصبح خطأ .

والثاني لم يعترف به ، ولم يقره ، فأصبح عيبا وحراما .

ولفظة العيب ليس لها رصيد إلاّ ما تعطيه لها الجماعة الإنسانية من تأثير يقول القاص في صفحة (٧٣) : " كانت مزاولتهم لأعمال المكتب الثاني كجماعة قد أضفت على العمل نوعا من القانونية ومحا عنهم كل أثر للإحساس بالذنب) .

وإذا وجد فرد يناقض تلك الجماعة في سيرتها ، فهو الدليل الدامغ أمامهم على انحرافهم ، وتبدأ الشرعية تتقوض شيئا فشيئا بعد أن كانت سائدة ، ولا يعكر صفوها شيء ، وبدا ما كانت (سناء) تفعله لجماعة المكتب ، صفحة (٧٣) : " سناء بوجودها واشمئزازها ونظراتها جعلت إحساسا جديدا يبدأ يزحف ... إحساسا بخرق القانون ، بارتكاب معصية ! وقد تجسد هذا على هيئة ضيق شديد بسناء ووجودها ورغبة ملحة في التخلص منها " .

وبالرغم من أن سناء تعهدت لهم أنها لن تتدخل في شئونهم ، ولن تنخرط في عملهم ، وآثرت الصمت ، إلاّ أن مجرد وجودها السلبي هذا وصمتها كان له أبلغ الأثر في نفوس الجماعة ، فهي – سناء – صفحة ماء صاف نقي ، ترى مجموعة

المصلحة على سطحها وجوههم النتنة ، ونفوسهم الممتلئة بالذنب ، المغلولة بالعيب ذلك لأنها تصدع جدران الشرعية الزائف الذي أقاموه بينهم ، باجتماعهم على فعل واحد ، والذي يضخم ويزيد من هذا الصدع أنها أنثى والمفروض أنها أضعف من الرجل ، والرجل أقوى منها ، ليس في القوة العضلية فحسب ، بل في كل شيء وأهم شيء الإرادة ، إرادة مقاومة الانحراف والفساد ، فكيف لتلك الأنثى أن تقاوم وتقف وتعترض وتصر على ما لم يستطع عليه أولو القوة من رجال المصلحة ؟! وهذا بمثابة العري الخلقي ، فالرجل قد يتعرى أمام الرجل بدون أن يكون هناك خجل أما أن يتعرى خلقيا على مشهد من أنثى فهذا أنكى وأشد على الرجل .

في صفحة (٧٤) . " إن المذنب لا يحسد البريئ ، إنه يكرهه ، ويحس به كأنه ضميره ، وكأن الضمير هو الجزء البريئ في قلب المذنب ، وسناء ذلك الركن الخامس البريئ في المكتب ، كانت قد أصبحت كالضمير المقيم الذي لا يتحرك ، والذي لا تخفى عليه خافية ، والذي يقابل كل ما يدور أمامه بالصمت والسكون ، ليتها كانت تتكلم أو تنصح أو حتى تشتم ، ليتها تفعل أي شيء ، إلاّ أن تسكت والكارثة أنها ضمير مؤنث أن الرجل لا يخجله كثيرا أن يرتكب الخطأ أو الحماقة أمام زميله الرجل ، أي رجل ... ولكنه يخجل بشاعة أمام الأنثى أي أنثى " .

وهذا يلقي ضوء على نفسية المجتمعات الإنسانية ومكونات تفكيرها ونوازع تصرفاتها ، ويؤكد أن أخلاق القطيع لا تنطلق على الإنسان ، فيكفي أن يسير فرد واحد في طريق مغاير حتى يسبب القلق والضيق والاضطراب لبقية الجماعة وهذا يفسر مسارعة الجماعة لقتل الخارج عليها ، سواء كان الخارج هذا ثائرًا أو نبيا أو مصلحا ، فهو يعطي نتيجتين:

الأولى : دليل حي على ضلال وانحراف الجماعة ، وكسر لشريعتهم ، يرون فيه كل ما يحاولون الهروب منه ، وكأنه لسعات ضمير قلق يريدون إخراسه إلى الأبد حتى لا يقض مضجعهم ويقلق راحتهم .

الثانية : إنه بمثابة شرارة نار مطهرة ، تنتقل إلى بقية الجماعة فردًا فردًا ، حتى تعطي الشرعية الكاملة للفعل المغاير لما تسير عليه الجماعة ، ومع مرور الوقت يزداد الفرد إلى اثنين وإلى ثلاثة وهكذا .

وبقيام الفرد بهذين العملين يضطرب حال الجماعة وتدخل في طور من التغييرات ، وهذا ما ترفضه الجماعة المنحرفة منذ البداية .

(وكان طبيعيا جدا في مثل ذلك الجو أن تحدث ارتباكات في مزاولة العملية ن فمحاولات كل منهم للتخفي واستدراج الزبون بأقل ما يمكن من الضجة وبسرعة لا تثير الانتباه ، وبالذات انتباه (سناء) هذه المحاولات كانت غالبا ما تفشل وكثيرًا ما تصدر من الزبون كلمة أو إشارة تفضح ، فيفقد الموظف أعصابه ويعدل عن الصفقة نهائيا بين عجب الزبون ودهشته ، ويصر على أن يأخذ القانون مجراه وفي إصراره ذلك يرفع صوته ، ويعظ ويحاضر ، ويكاد يشهد الجدران والمكاتب والأثاث على ما يقول ، إنك بدأت تحدث منافسات وبدأ كل منهم يريد أن يبدو أكثر من الآخر غيرة على القانون وفي مقابل هذا بدأت تحدث اتفاقات خاصة ن وبينما الواحد منهم يرفض في العلن ويصر على الرفض إذا به يتفق سرا مع الزبون ويتقاضى الثمن وحده ، بعيدا عن أعين الزملاء ، بعيدا عن الركن الخامس).

إنها بمثابة ضمير الجماعة . الكل يخشاها . الكل يريد أن يرضيها . وإن لم يرضها فلا يريد أن يغضبها . وهذا الموقف يوضح أن ليس هناك مبرر أن ينحرف الإنسان بحجة أن المجتمع يقر ذلك . أو لا يعاقب على ذلك . ولتكن نقطة الإصلاح من حيث يقف هو . بل لا يصح الإنسان نفسه في موقف : إن صلاح المجتمع كله مناط بصلاحه . وفساده متوقف عليه . إنها مسئولية أخلاقية تحتم على الإنسان ألاَّ يكون مستقبلاً فقط من المجتمع . ويكفر بما يكفر به . فكل إنسان به شيء من طبيعة الثوري . أن يعارض ويقول لا . يكون المنطلقة التي تؤكد الصواب من الخطأ ويوم أن يعرف المجتمع – معرفة يقينية – أن هذا صواب وذاك خطأ لن يجرؤ أي فرد على ارتكاب الخطأ .

وليس هذا بالموقف السهل . فهو موقف بطولي . وليس كل الناس أبطال فهو والمجتمع خصمان . والويل لمن يكون خصما للمجتمع . فهو الشاذ وهو المنحرف وهو المذنب . وكل النعوت ملتصقة به . فهو الذي بدأ بمعاداة الجماعة وعليه أن يتحمل .

وكان هذا موقف (سناء) من جماعة المكتب . فها هي تشعر بأنها مكروهة منبوذة ملعونة صفحة (٨٠) (ومن الثامنة والنصف يبدؤن في الحضور ومن أول الباشكاتب إلى محمد الجندي آخر القادمين تخرج التحية فاترة لا روح فيها ولا طعم . هذا إذا لم يتشاغل بعضهم عن قولها أصلا .لا تغيير !! وكأنها هي التي أذنبت . وكأنهم ليسوا المخطئين).

إن قوة الجماعة لا يستهان بها في إجبار الفرد على قبول ما ترتضيه تلك الجماعة . والمثل الشعبي يفلسف هذا الموقف بجلاء (كُل ما يعجبك . والبس ما يعجب الناس) فالمجتمع يريد كل أفراده متوافقين معه . وليس من شاذ هناك .

٢- السقوط :

(سناء) فتاة طاهرة نقية . أكثر ما تخشاه العيب والحرام . رُبيت على الخلق القويم . لم يعكر صفو تلك الطبيعة إلا تجارب مبتورة الأوصال . فعلاقة الحب التي نشأت بينها وبين طالب الطب حالما نبذتها عندما أصر هو على حب (الجسد) بينما هي لا تؤمن إلاَّ بحب الروح . والتجربة التي مرت بها مع زوج خالتها حينما أراد اغتصابها وقاومت مقاومة عنيفة . وكان مصدر مقاومتها مبدأ الحرام عندها (٩٨) : (ولكن لا المفاجأة ولا الإطباقة ولا السرعة التي حدثت بها الحادثة كانت السبب في رعبها . الرعب الذي اجتاحها وشل إرادتها وجعلها تناضل مناضلة النائم في كابوس ر يخرج عن حلقه صوت . ولا يملك رفع أصبع ...هذا الرعب كان بسبب أكبر وأخطر . إنه زوج خالتها المحرم عليها والمحرمة هي كأمه كأخته كخالته- الرعب أن يسجل رجل لنفسه – أي رجل – مهما كان سيء السمعة والأخلاق مثله . أن يفكر مجرد تفكير في الشيء الذي لم يفكر فيه لحظتها وإما كان يفعله) .

فهي تعطي للحدث أكبر قدر من البشاعة . وتلك النظرة ناتجة عن نفسها التي وعت بعمق ذهنيا وفعليا مناطق العيب والحرام . وألت على نفسها ألا تقترب من تلك المنطقة المحرمة عليها تحريما أبديا . والأطر الأخلاقية لتلك الشخصية

وضحت بجلاء من خلال صراعها مع (محمد الجندي) ومقاومتها ورفضها الانخراط مع جماعة المكتب لبيع التصاريح .

ونلاحظ أن القاص منذ بداية الرواية يحشد تلك الشخصية بكل تلك القيم والمبادئ الخلقية ، ويرفعها إلى مكان عال فوق الآخرين ، ويجعلها الضمير الحي اليقظ في المصلحة ، ليصل الأمر أن الكل يخشونها ، ويتجنبونها لا لشيء إلا لقوة الخير وإرادة البعد عن الانحراف والفساد والعيب ، وهو إذ يفعل هذا يبدأ في طريق مواز نسج الخط الدرامي لشخصيتها ، فهو لا يرتفع بها بكل ثقة واعتداد وفخر إلاّ ليلقيها بلا رحمة إلى أسفل سافلين .

ولكن أهذا يتفق مع المنطق الذي يفرضه العمل الفني ، ويؤيده الحدث الدرامي ...هذا المنطق الذي سنكتشف بكل وضوح إذا ما سألنا أنفسنا

- لماذا نكصت (سناء) عن طريقها الذي كانت تسير فيه متحدية جماعة المكتب ؟
- وما سبب سقوطها ؟ هل يفرضها العمل الروائي أم هو مقحم على العمل من القاص ؟

من الميسور على الإنسان أن يؤمن بجملة من المبادئ والقيم ، ولكن هذا الإيمان هشٌ ، ليس له جذور ، ما لم يكن محصلة تجربة مر بها الإنسان ، وكانت تلك التجربة تضع الإنسان بين خيارين ، وهذا الاختيار له مسئوليات لا مناص من تحملها ، فإذا ما سار في الطريق إلى آخره بأن اختار بين البدائل وتحمل نتيجة هذا الاختيار ، بنفس واعية واقتناع كامل ، فقد ثبت للابتلاء ، وأيقن بأيمانه الراسخ

وحلاوة ومتعة الإيمان بشيء لا تأتي إلا إذا نال الإنسان في سبيلها المشاق . فهي تزيد من تمسكه بمبادئه التي يؤمن بها . هذا التمسك مصدر المتعة التي يعيشها . لأنه بهذا مع حقيقته وجوهره الذي خلقه الله عليه .

وقد كانت (سناء) تؤمن بتلك المبادئ التي تنأى بها عن الانخراط مع جماعة المكتب ...قد يكون موقف (سناء) هذا نوعا من الخوف . وهي الخام التي لم تدر شيئا عن أساليب العمل في المصلحة . إلى جانب أنها أنثى . الخطأ عندها له صورته المكبرة . المحاطة بهالة من التحريم والعيب . أو نوعًا من الترفع عن الخطأ ليس إلاّ . فهي ليست في حاجة أن تضع نفسها في موقف محاط بالشبهات . وهي في غنى عما سوف تأخذه من دلك . أو تريد أن يكون لها ما يميزها عن جماعة المصلحة . وهذا يخلق لها نوعا من التفرد . أما أن نقول أن إيمانها بقيمها هو الذي منعها من أن تسير مع تيار موظفي المكتب . فهذا ما نستطيع أن نجزم به .

ولكي نقف على حقيقة ودوافع الشخصية . الأمر في حاجة إلى ابتلاء أو صراع أو شد وجذب . وموقف حرج تكون فيه الشخصية . ومن خلال تصرفها تتكشف دوافع ونوازع تلك الشخصية .

٣ -الصراع :

قضت (سناء) ليلة ليلاء حينما لم تستطع أن تدبر مصاريف مدرسة أخيها (أسامة) والتي بدونها لن يستطيع أن يدخل الامتحان . ولا نستطيع – من خلال الأحداث – أن نقول أن بالقصة صراع ما . فهو ليس موجودًا . والشخصية لم تتعرض له . فقد آثرت الشخصية من أول لحظة أن تتخلص وتتخلى عما كانت تؤمن به . في سبيل أن توفر مصاريف أخيها (١٠٢) :

(يومها كانت مستعدة أن تقتل أو تسرق أو تصنع أي شيء في سبيل أن تحصل لأخيها على قيمة القسط . فليلة الأمس بكى لأول مرة تراه منذ أن كبر يبكي كما كان يفعل وهو طفل . كانت تتناقش مع أمها في كيفية الحصول على النقود . وطرقا بنقاشهما كل الأبواب والاحتمالات دون جدوى . حتى بات واضحًا أن النقود لن تأتيهم إلاّ إذا فتح الله سبحانه سقف حجرتهم وأسقط لهم من خلاله قيمة القسط . وكان النقاش قد استغرقها إلى درجة نسيا معها أن أسامة موجود بجوارهما . ولم يفطنا لوجوده . إلا حين سمعتا بكاءه . والتفتا لتجدا دموعه تلمع بكثرة . فوق وجهه . وخيبة الأمل مرتسمة بصورة واضحة تنطقها رغم طفولتها الخرساء ملامحه . ولحظتها صدر عن كل ذرة من كيانها قسم تلقائي مفاجئ غير منطوق ودون أن تعي أو تريد . قسم أنها لابد واجدة حلا .. لابد صانعة المستحيل وما هو أكثر منه كي لا يذرف أسامة دمعة أخرى . أو ترسم على وجهه هذه الصورة الخرساء لخيبة الأمل) .

لقد انتهى الصراع قبل أن يبدأ . بتخلي الشخصية عن كل ما تؤمن به من أول اختبار . فقد كانت تظن أن الإيمان بقيمة بمثابة حلية تتحلى بها . كأسورة أو خاتم بدون أن تعاني أو تقاسي .

فقد بحثت وسألت كل من تقابله كي تسدد قسط المدرسة . ولكنها لم تجد فلا زميلتها (نور) ولا الباش كاتب . ووجدت كل الأبواب قد سُدت في وجهها ولم يستطع أسامة دخول الامتحان .

ووجدت مشكلة أخرى بعد تغيبها عن عملها دون إذن . فقد ألت على نفسها أن ترفه عن (أسامة) بعد اليوم العصيب الذي مر به . ولكي تأتي بشهادة من طبيب ليحتسب اليوم أجازة يلزمها خمسون قرشا . وظلت تلح على زميلتها حتى استطاعت أن تظفر بالخمسين قرشا وبالشهادة .

لقد قتل الموقف الذي مرت به كل نوازع الخير في نفسها . وتخلت عن كل ما كانت تتمسك به من قيم ومبادئ . فلم تصمد للتجربة ولم تعاند ولم تتحد . وإنما انهارت من أول ضربة وُجهت إليها . وبدأت تنسى أفكارًا وقيمًا مغايرة لما كانت تؤمن به . (١١١) . (أفاقت لتجد نوعا من عدم المبالاة . قد أصبح يصبغ تفكيرها وأرائها وتصرفاتها وكانت اللحظة الصاعقة التي عانت فيها من الشعور بأنها مبعدة منبوذة قد جعلتها هي الأخرى تبدأ تنبذ الناس في تفكيرها وتصرفاتها . لم تعد مهما ان تظفر برضائهم عنها . وبين يوم وليلة ملأها الشعور بأنها لا تملك في هذه الدنيا ولا يجب عليها أن تراعي سوى نفسها . شعور لم يكن عميقا خافيا . لقد طلبت حتى لزميلاتها ولاحظوه واتخذوه مادة لتعليقاتهم).

فالمواقف وحدها والتجارب هي التي تظهر حقيقة الشخصية . وقد خرجت (سناء) من هذه التجربة بنتيجة ..أن نظافتها لم تتحمل ثمنها ، ولكن أخاها هو الذي تحمل تلك النتيجة ، وبدأت تؤمن بمبدأ غريب ، مبدأ الناس كانت التي كانت تستنكره ،منطق تبرير الخطأ والانحراف ، بالحجة الباطلة ، حجة التضحية بالنفس من أجل الآخرين ، وكأن انحرافه وقبوله الرشوة سيعود بالنفع والخير على الآخرين ، فهذا منطق معكوس تتبناه الشخصية للتوافق مع الواقع الفاسد ، وتظن أن تبنيها إياه ستعقد مصالحة بينها وبين واقعها التي لم تستطع أن تعارضه أو تتمرد عليه .

في صفحة (١٢٣) . (إن ما يحدث لأسامة والاضطراب الخطير الذي اجتاح حياته بعد حرمانه من الامتحان هو الثمن (لنظافتها) ثمن لم تدفعه هي ولكن تحمله وسحق به هذا الصبي ، الذي لا ذنب له ، إنه كالنبات النامي لابد له من الحصول على الماء والغذاء ، وإلا هلك ، ولابد لأهله أن يوفروا له هذا وبأي ثمن ، وبأي وسيلة .لا يهمه أبدا نوع المصدر ، ترى هل يغفر لها الآن أو حين يكبر وهي المسئولة عنه وعن عائلتها الصغيرة - إنها جعلته يقاسي من ضربة معطلة قاصمة ، فقط لتظل في نظر نفسها وفي نظر الناس محترمة نظيفة ؟ إنها تعرف آباء وأمهات يحللين الحرام ليوفروا لأولادهم الغذاء والكساء ، (محمد الجندي) في كل قدارته لا يفعل أكثر من أن يوفر للحيش الجرار الذي أوجده على سطح الأرض حاجته بمعنى آخر هو يضحي بذاته ويلوثها لينقذ أولاده ، أيها إذن أكثر نظافة ؟

لقد أمضت ساعات الصباح تعطي الجندي دروسا في النظافة والصواب والخطأ ، لماذا لا تواجه نفسها الآن كما واجهته وتعترف بالمعنى الحقيقي لما فعلته ؟ أليس معناه الحقيقي أنها كانت أنانية إلى درجة دفعتها للتمسك بذاتها وقيمها حتى ولو أدى الأمر إلى تشريد أخيها الصغير وأبنها وحبيبها الوحيد ؟ وأليس معناه الحقيقي أيضا أن (محمد الجندي) أقل منها أنانية بل هو ملاك إذا قيس بها ، مسيح صحى بذاته ولوثها ومرمطها من أجل أن ينشأ أبناؤه الدين يحبهم نظافا صالحين) .

شيئان يدفعان الإنسان دفعا أن يستحل الحرام ، أولهما : قسوة الواقع . وثانيهما : الآخرون الذين تربطهم به علاقات وطيدة .

فالإنسان لا قبل له بأن يتحمل واقعًا قاسيًا ، فهو يسعى إلى تغييره بأي طريقة شرعية أم غير شرعية ، فإذا كان المجتمع ونظامه على صواب ، سلك الإنسان الطرق الشرعية لتغيير واقعه ، أما إن لم يكن على صواب ، وفُرض على الإنسان فرضا بكل عيوبه ونقائصه ، فقد يسلك طريقا آخر مضادا للنظام ، ويكون دلك على هيئة ثورة أو تمرد ، وإن لم يكن فليس ثمة إلا الانحراف والإفساد واصطناع كل السبل والحيل للحصول على المال .

والذي يدفع الإنسان إلى هذا ليس رغبة داخله ، فداخله نقي متمسك بالقيم والمبادئ ، ولكن الدافع خارجي متمثل في أن هناك أخا وزوجة وأولاد ...بحيث لو أُبعد عن تلك المؤثرات لأنعدم الدافع ولأنعدم الانحراف ولبقى الإنسان على صلاحه ونقائه .

فكل شخصيات الرواية مدفوعة بدافع خارجي لخرق القانون وارتكاب العيب . الباش كاتب من أجل الأولاد وزوجه . لأنه لا يستطيع أن يوفر لهم ما يحتاجونه . حتى (محمد الجندي) الذي كان يجد متعة كبيرة في خرق القانون – أي قانون – يفعل هذا تحت دافع خارجي متمثل في قسوة والده في ترينة (١١٩) .

(طوال عمره ومنذ أن كف أبوه عن ضربه وعقابه وصب الأوامر والنصائح كالزيت المغلي فوق رأسه . منذ أن مات كأنما عاهد نفسه بعدها ألاَّ يستمع لنصح أحد سواء أكان مخطئا أم مصيبا . وسواء أكانت النصيحة من عاقل أو أحمق بل لقد جعل شعاره بوعي منه أو بغير وعي ،أن يخالف كل ما يقال له من نصائح وهوايته الكبرى أن يعصي القوانين . إن القانون يظل عدوه اللدود إلى أن ينجح في خرقه . التعليمات تظل شيئا لا يطاق إلى أن ينجح في العثور على وسيلة يستطيع أن يتحايل بها عليها وليس فقط القوانين واللوائح المكتوبة أكثر من هذا وأبعد . كل ما يأخذ شكل القانون إذا تصادف ووجد . رجام القيشاني في أي دورة مياه يدخلها لامعا نظيفا أنيقا لا يستريح إلاَّ إذا أحرج قلمه الكوبيا وشخبط حتى يشوه المنظر . إذا جلس على مقعد عربة الأتوبيس سرعان ما يخرج سلسلة مفاتيحه وبها المطواة الصغيرة ذات السلاح الحاد الذي يفتحه ويعمله في جلد الكرسي وفي تخف شديد يقطعه حتى يطل القطن ويعمله في الجوانب حتى يظهر معدنها . وإذا أردت أن يكرهك كره العمى فانصحه نصيحة) .

وإذا كان الإنسان يرتكب ما يرتكبه من أجل الآخرين . فهو في نفس الوقت يرتكب في حقهم أكبر الخطأ بما استحله اليوم لظروف قاهرة ودوافع مجبرة . واضعًا ما يشاء من تبريرات عقلية . فإن ابنه أو حفيده مستقبلاً سيرتكب نفس الفعل

الخطأ بدون أن تكون هناك دوافع وبدون أن يكون في حاجة إلى تبريرات ، لأنه سينظر إلى الفعل مجردًا عن ملابساته المختلفة.

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [سورة الزُّخرُف:٢٢]

فالإنسان لا يرث عن والديه مالا فقط بل يرث أيضا خلقا وقيما ومبادئ :(١٣٤) (أفكار تطرق عقلها وتقلب تفكيرها رأسا على عقب ، وتجعلها تغوص وتغوص في التأمل على هدى هذه الخواطر ، إننا حلقة واحدة من سلسلة طويلة نصل فيها بين آبائنا وأجدادنا وبين أبنائنا وأحفادنا ، ونفعل هذا رغمًا لأنه وضع لم نستشر فيه ، فقد خلقنا بما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا من علامات وبما سنورثه لأبنائنا وأحفادنا . من أجل هذا نحن لا نملك أن نفكر في أنفسنا كأنفسنا فقط ن وغنما علينا أن نفكر فيها باعتبارها جزءًا من سلسلة وهمزة الوصل بين جيل مضى وجيل مقبل ، بحيث نعي أن القرار الذي نتخذه لا يخصنا وحدنا ولكنه سيؤثر أعمق التأثير في حلقات السلسة من بعدنا . وأولئك الذين يفكرون في أنفسهم (كأحرار) (كان موجود) (كان البداية والنهاية) أناس مخرفون يتجاهلون ألف باء الوجود الإنساني ، بمعنى أدق يقطعون بهذا النوع من التفكير أنفسهم من سلسلة البشر يصبحون كالسيقان والأذرع المبتورة عمرها محدد بعمر خلاياها في حين وهو أعضاء ومكونات في السلالة البشرية عمرهم يبدأ قبل مولدهم بملايين السنين هي عمر البشرية قبل وجودهم ، وعمرهم يظل ممتدًا بعد موتهم بملايين السنين هي عمر البشرية من بعدهم . من المهم إذن أن نتحدث عن أنفسنا وقيمنا والحرام

والحلال والعيب واللا عيب بالنسبة إلينا . أن نضع في اعتبارنا أنها ستكون كذلك أيضا بالنسبة لأبنائنا ومن بعدهم بالنسبة لأحفادنا) .

فالخطأ الذي يرتكبه إنسان ما لا يحيق بوحدة . وإنما يشمله ويشمل الآخرين فنتيجة الخطأ هنا مزدوجة . ولكن هل سقطت (سناء) من أجل أخيها حقا ؟ وهل يسقط الإنسان في العادة من أجل الآخرين ؟ لا . فالإنسان أكثر أنانية من ذلك فالأمر واضح وحاسم وقاطع فإذا أصاب الإنسان فمن أجل نفسه . كذلك إذا أخطأ فمن أجل نفسه أيضا . و(سناء) لم تسقط من أجل (أسامة) كما نقول .

(الآن وفي المساء وبعد أن احتضنت (أسامة) وشعرت بجسده الصغير الدافئ كتلة حية مجسدة وملموسة بدأ الشك يتسرب إلى إيمانها داك . ولم تعد واثقة كل الثقة أنها الأحسن والأنظف والأكثر شرفًا وسموًا) .

هي لم ترث لأسامة . وإنما رثت لنفسها وارتكبت ما ارتكبته لنفسها فحسب ولكن الإنسان لا يستطيع أن يواجه نفسه بالحقيقة . وإنما يرى الحقيقة متوارية في ذوات الآخرين ن فهي لا يعنيها (أسامة) وإنما تعنيها ذاتها . كيف لم تستطع أن توفر ما يحتاجه (أسامة) الآخر المتعلق بذاتها . بغض النظر عن الآخرين بدليل أنها كانت تريد أشياء كأي فتاة في مثل سنها . والحصول على تلك الأشياء لا يتم إلاَّ بطريق ملتو لا تستطيع أن تسلكه صراحة .

أو قل أن احتياجها لمثل تلك الأشياء والإحساس بها كان مؤجلاً . أو لم نعطه البعد الحقيقي لعدم تحقق الذات . فكيف تلبي احتياجات ذات لم تتحقق بعد ؟

وما حدث لأسامة ، أعطى لذاتها صورتها الحقيقية من عدم تحقق وحرمان وهاهو الموقف كما لم تستطع سناء أن تواجهه وأثرت تأجيله أو رفعه من تفكيرها : (ورأسها الصغير رغم شعرها الناعم الغزير ملئ بالأحلام أيضا ن باقتناء الملابس الفاخرة الأنيقة بحياة الثروة والغنى ، بالطموح -أحلام تتغير هي الأخرى وتتجدد .... إذ بينما كانت تحلم في العام الماضي بجوانتي من الجلد الفاخر المبطن بالفرو في هذا العام هي تحلم بأن تبلغ في وظيفتها شأوا ومرتبا تستطيع أن تدفع منه أقساط عربة نصر ١١٠٠وتسوقها وحدها وتفسح أمها وتذهلها بها).

قد تقول أنها أحلام ومطامح ، ولكن لا سبيل إلى تحقيقها بالطريق السوى قط ، ووجدت (أسامة) لتعلق عليه سبب سقوطها ، كما علقت (عزيزة) سقوطها على جذر البطاطا في رواية (الحرام) . ويتضح ذلك من خلال موقف سناء بعدما عرض (عبادة بك) عليها رشوة ، وكان التغيير الذي طرأ على سناء هائلا ، فليست هي التي رفضت من قبل قبول الرشوة بكل إباء وتصميم ن فبعد حدوث ما حدث أيقنت إيقانا كاملاً بحاجتها إلى المال ، بأي طريقة ، فكل إنسان في حاجة إلى تحقيق ذاته ، وهذا دافع طبيعي ، ووجدت (سناء) أن طريقتها في تحقيق الذات لم يزدها إلاَّ شحوبًا وذبولاً ، وشعرت بنفسها منبوذة ، ملعونة من جماعة المكتب ، ليس أمام جماعة المكتب فقط ، بل أمام أخيها ، ومن قبل أمام نفسها ، إذن فهي على خطأ ألاَّ نسير مع التيار ، واستبدلت الخطأ بالصواب .(١٣٦)

(كان التساؤل هو ... ماذا يحدث لو أخذتها ؟ تساؤل هكذا يلقي ويعود يلقي دون أن تنتظر إجابة عليه . ماذا يحدث لو أخذتها ؟

كل ما كانت تريده هو مهملة خاطفة تستطيع بطريقة ما أن توقف هذا التساؤل المتواصل المزعج وتفكر فيها . ولكن بدا وكأن عقلها نفسه لا يريد هذه المهلة ولا يريد أن يفكر ويريدها أن تتصرف بوحي من غرائزها البدائية الأولى الغرائز التي تنجذب إلى الدفء والنور وتنفر من الأشياء لا بحسب قيمها الظاهرة المحسوسة ومعانيها التي تتلخص في معنيين اثنين ...أهذا الشيء يضر جسدي حتى أهرب منه أم يفيده حتى أحصل عليه) .

أما وقد تركت الأمر للغرائز البدائية المنفلتة من كل قيود القيم . فقد انقلبت إلى إنسان شره نهم لا يعنيه سوى ما يحصل عليه بأي طريقة وبأي أسلوب . (١٣١) . (ويحكم هذه الغرائز لو كان لص دخل الحجرة في ذلك الوقت لاستماتت سدناء دفاعا عن الرزمة بحكمها كانت قد أصبحت ملكها ويحكمها أيضا قد أصبحت المشكلة لا أن تأخذها أولا تأخذها وإنما هي كيف تدافع عنها وتمنعها من التسرب من حوزتها) .

وهكذا تخلت الشخصية عن كل قيمها وكل مبادئها بقبولها الرشوة من (عبادة بك) وقد أهمت نفسها أنها لا ترتكب خطأ . واضعة تلك الأسوار حول ذاتها كي تدافع عنها . إذا ما حاولها شك أنها مدانة . فكل ما تفعله من استخراج تصاريح الاستيراد لعبادة بك هو من صميم عملها ليس إلاَّ ... فقد استشارت الباش كاتب وأشار عليها بملء خانات التصاريح وها هي تؤدي عملها (١١٤) : (هل حدث أن تحرك موظف أو موظفة واضعا بيع ذمته كهدف ؟ على

الإطلاق لم يحدث شيء من هذا . إنه دائما يتحرك موهما نفسه مؤكدا ومقسما ومؤمنا إيمانا لا يتزعزع إنه إذا يتحرك فإما ليؤدي واجبه فقط لينجز عمله عسكري المرور الذي يقبل القروش العشرة حتى لا يحرر لك محضرًا يوهم نفسه بأدلة يضعها أو يصطنعها أنك فعلا لا تستحق المحضر وأنه بإلغائه إنما يؤدي واجبه الذي يمليه عليه ضميره . وما العشرة القروش سوى مبلغ تطوعت أنت بدفعه سداجة منك وعطا ، إذ كان هو على أي الحالات لا ينوي تحرير المحضر) .

موقف يغالط الإنسان فيه نفسه . ذلك لأنه ليس له قدرة على ارتكاب الخطأ ن وليس لديه قوة على اجتنابه . ولا يفعل شيئا إلا بعد الاقتناع به . وهو إذا اقتنع فقد أزال كل الحواجز والعقبات من قيم ومبادئ . وإذا ما فعله فهو في حاجة إلى الدفاع عن نفسه وبذلك يستبدل الصواب بالخطأ، وتنقلب المعايير . وهو في ذلك بد بأربع مراحل :

١- وضع تبرير للانحراف

٢- الاقتناع به .

٣- فعله .

٤- الدفاع عنه .

ويفعل الإنسان بعد ذلك ما يفعله بنفس راضية وعقل مقتنع وضمير مستقر. وكما يقول (عبادة بك) وهو في طريق نجاحه في إغراء (سناء) بقبول الرشوة: (١٤٥):

(علامة يعرفها جيدًا إذا الخبرة قد علمته أن الشخص يبدأ في إقناع نفسه أن فعله أمر لا غبار عليه يكون فعلاً وحقيقة قد بدأ يدافع عن الشيء الذي عليه غبار مؤكدًا لنفسه أن لا غبار عليه البتة).

والسقوط هنا ليس محدود بمكان. ولكنه سقوط أبدي يلازم الشخص مدى الحياة. فقد تخلى عن قيمه. وبتخليه هذا عن نفسه. فهو لن يبع التصاريح. وإنما باع نفسه ولن يقبض ثمن نفسه. وعبادة بك كان يدرك هذا. لذلك نجح نجاحا منقطع النظير في إغراء سناء (١٤٦). (..هنا لا يعني قيمة ما يستحقه الشخص. ولكنه يعني على وجه الدقة قيمة ما يطرح هو في الحصول عليه .أي بمعنى آخر قيمة ثمنه في نفسه ... وعليك أنت أن تثمنه بأعلى بكثير مما توقع أو يستحق. ولا تخشى الخسارة أو بعثرة نقودك فأنت لا تشتري إمضاء لمرة ...أنت تشتري شخصا بأكمله ووظيفته ونفوذا إلى زمن لا نهاية له).

وإذا كانت ضريبة النظافة والتمسك بالضمير التي دفعتها (سناء) هي شعورها بالوحدة داخل إطار مجموعة المكتب وأنها منبوذة وملعونة. وكأنها كائن غريب وسط قوة لا تفهمهم ولا يفهمونها وتخليهم عنها وقت حاجتها إليهم. فقد كانت هناك مكافأة تنظرها سناء على بيعها ضميرها وتخليها عن قيمها وقبولها الرشوة من جماعة المكتب (١٠١). (وجدت سر صفقة الخميس قد تسربت إلى الزملاء والأعداء ...من الناشكات من خفاحة أومن عبادة نفسه. تفصيل لا يهمها في قليل أو كثير

والغريب أنها بعد برهة وجدت نفسها غير ساخطة . أكثر من هذا سعيدة . بهذا التسرب لكان حائطًا سميكًا كان يفصلها عن سليمان وأحمد والباش كاتب والجندي قد تهدم من أساسه .

ولم يسخر منها أحد . ولم يحاول أحد أن يعايرها . بالعكس أقبل الجميع عليها . وكأنها نجحت في امتحان وانتقلت إلى خانتهم . أو لكأنها الأخت المريضة التي عُوفيت وشُفيت وأنضمت إلى العائلة والتحفظ زال والحرص في المعاملة اختفى والحجرة تحولت إلى مكان عذب خفيف الروح يغري بالإقامة) .

وكأن هناك قانون يحكم تلك الجماعة .أو من المحتمل أن يكون نفس القانون الذي يحكم أي مجتمع من المجتمعات . قانون يعاقب المحسن ويثيب المسئ . فهرم الأخلاق هنا مقلوب . الشرف والأمانة والضمير . كل تلك القيم مدانة . أما ما يناقضها فهي المعترف بها . والسائرة في عرف تلك الجماعة . فقد باركت وكافأت الجماعة (سقوط) سناء بعد ساعات على ذلك السقوط . وسعدت وأسعدتها حينما باعت قيمها . بل باعت نفسها .

إعادة التشكيل :

موضوع القصة محفوف بالصراع والشد والجذب . فهو صراع على القيم والمبادئ . وصراع القيم والمبادئ أشد أحمى من صراع الأسلحة . فقد يخرج الإنسان من معركة الأسلحة مجروحا ثم تتكفل الأيام بتضميد جراحه . أو يقتل أثناء المعركة وينتهي الأمر . أما صراع القيم فقد يُذبح الإنسانُ ويسيل منه الدم وهو حي ينام ويستيقظ ويأكل ويشرب ومع ذلك فهو مذبوح ؛ لأن قيمه قد انتهكت . والقيمة لا تتحدد بمعيار السلوك الفردي أو الجماعي فحسب . بل لجيل أو أجيال كثيرة ومن الصعب محوها . كما أن من العسير نشرها . فهي حرب ضروس لا هوادة فيها . والمر على هذه الصورة . أما كان من الأحدر للقاص أن يجعل شخصيته الرئيسية رجلا بدلا من امرأة ؟ فالمرأة ليس لها قدرة على الصراع والعراك والخصام . فالوضع الصحيح أن تكون الشخصية رجلاً قادرًا جلدًا على الصراع ... أما أن تكون الشخصية امرأة فهناك مغزى وهدف يقصده القاص من وراء ذلك .

القاص لا يريد أن يعطي الصورة الحقيقة لجزئيات الواقع المعاش . فهذا نوع من التسجيل (الفوتوغرافي) . ليس وراءه طائل . فمهمته أن يعيد تشكيل الواقع ليخلق في نفس القارئ موقفا منه .

فالعادة والإلف للواقع يخلق نوعا من الاستئناس أو المعايشة في وئام بين الإنسان وواقعه . وتأتي هنا مهمة القاص . وهي صدع هذا الإلف والاستئناس حتى يرى واقعه بدون زيف .وبعد ذلك يكون للقارئ موقف أما بالرفض أو التغيير .و التمرد .

فقد أراد القاص أن يشنع صورة الرشوة . ويعطي لمعنى الرشوة نوعا من التكثيف ن لتكون الجرعة مركزة تركيزا يدفع القارئ لجهة من الجهات . فالفائدة التي اطل منها على الواقع الفاسد امرأة . ومن عادة المرأة أن لا ترى النسب الحقيقية للأشياء . وإنما تضخمها . ولا ترى الحرام أو العيب شيئين من لوازم الواقع . وإنما تواجههما في صورة أشنع وأكبر . فتلك الأشياء لا تمس كرامتها أو سمعتها فحسب . بل تمس شرفها . كامرأة . تلك المنطقة التي تهون الحياة وتهون المرأة إذا هانت . وهذا ما شعرت به (سناء) حينما أراد (الجندي) أن يشركها معه في بيع التصاريح . (٦٢) (الإهانة الحقيقة أنه لابد قد وضع في اعتباره وهو يرسم خطته احتمالا شبه أكيد أنها من الممكن أن توافق الإهانة الحقيقية هو ظنه شيئا لهذا فيها . وليست إهانة لشرفها فقط وكرامتها . وإنما الإهانة العميقة هي أن هذا كله وُجه إليها من رجل . الإهانة الأعمق والأخطر إنها فتاة - أنثى - وأن رجلا هو الذي ظن فيها هذا الظن . وعوملت بتلك الطريقة بما جرحت هذا الجرح العميق . لاعترفت أن ما حدث سبة أو تهمة عادية وجهت إليها إلى شرفها . هي في الحقيقة إهانة لأنوثتها . لشرفها ككاتبة أو كفتاة تعمل . إهانة ليس ردها الصفع أو الركل وكيل أقبح الألفاظ . فمهينها رجل ... الرجل لا يهمه أن يُسب أو يُشتم أو شخصيته أو مكانته ولكنها أبدا لا تخدش شرفه ولا تجرحه هذا الجرح الغائر الدامي . ماذا تفعل وهي تحس بشرفها الأنثوي مهانا ومجروحا . وهي عاجزة حتى عن الرد كرجل أمام رجل ؟ عن السب حتى أو الصفع ؟ أهناك ما يقتل من الغيظ أكثر من أن تجد نفسها في موقف المعتدي على شرفها . والعاجزة في نفس الوقت عن رده ؟ بكاؤها الشيء الوحيد الذي أفلت

منها يكاد يعميها . فرد الإهانة التي تلحق بالشرف ردها بمجرد البكاء إهانة في حد ذاته . إهانة صادرة منها هي . وأي مأساة أن ترد عدوان غيرك عليك وإهانته لك بأن تتولى أنت الآخر إهانة نفسك أمامه . أي عار) .

فهي في دفاعها عن قيمها ومبادئها لا تدافع عن أشياء خارجة عن ذاتها أو عن أسماء أو عناوين . وإنما تدافع عن شرفها . الذي يقرر أن تكون أو لا تكون تدافع عن وجودها . والقاص يريد أن يساوي بين القيم والمبادئ والشرف بعينه فقد يتغاضى الإنسان عن أي وكل إهانة إلا تلك التي تمس شرفه وعرضه .

وعرف (عبادة بك) أن من الصعب شراء المرأة . بينما من الميسور شراء الرجال (١٤٠) . (وقد علمته الأيام والتجارب أن النساء أصعب في بيع ذممهن بعشرات ومئات المرات من الرجال . بل المرة الوحيدة التي فشل فيها وحاب كانت أمام إحدى الموظفات الكبيرات)

فالأمر مع المرأة عابة في العسر . فليس لديهن الجراة ولا الشجاعة ولا التدبير الوحيد عند الرجل . فإذا كان الرجل يقادر على ارتكاب الخطأ وهو في نفس الوقت معتقد بتحريمه وبتجريمه . تلك القدرة ليست عن المرأة . فهي ليست بمرونة الرجولة تماثله في القدرة على الانسلال من بين حواجز القانون والقيم . (١٤١) (شخصيات هؤلاء الفتيات المتماسكة المترابطة ككتلة واحدة تضم قيمهن جميعا ... وكلها قيم متحدة واحدة ....الحرام فيها حرام تحت مختلف الظروف والأحوال والحلال أيضا واحد والعيب في العمل مثله مثل العيب في الشرف وما يعيب في البيت يعيب أيضا في المصلحة . كتلة مترابطة واحدة ففرق كبير بينها وبين قيم

الرجال الموزعة على أدراج ودوسيهات . بحيث يحيا الرجل صادقا بأكثر من مقياس وأكثر من شرف وأكثر من حلال أو حرام ويستدعي – إذا اضطرته الحاجة المقياس الذي يناسبها) .

تلك الفروق بين الرجل والمرأة ، وإن كانت في صالح المرأة إلاَّ أنها فروق ليست إيجابية بالمرة ، فهي لم تدفع الشخصية الصالحة (سناء) أن تأخذ موقفا ضد جماعة المكتب ، لذلك لم تصمد الشخصية للصراع ، فحالما انهارت .